

الموسيقى الشرقية

بقلم

الاستاذ وديع صبرا

مدير مدرسة الموسيقى الوطنية

٢

لا شيء. اوفر تأثيراً من ترتيم المؤذن عند السحر !
لا شيء. اقل في الحسن من الاغاني القديمة « كالميجانا » و« العتابا » فهي
تجسمات الشرق بكل ما فيه من حسن وجمال.

واي شيء. اشدّ وقعاً في النفس من نبرات « البغدادى » القوية ، التي
تجواب اصدائها بين قمم جبالنا ؟ واي شيء. اغنى من تلك التلحينات الشرقية
التي تقاين مداتها وليأتها الى ما لا نهاية له ، ومن تلك الاصوات التي لا يعاكس
المغنى شيء من القواعد والاصول ، في التصرف بنغائها ما شاء ، وكيف شاء ؟
واي شيء. اظهر شخصية من ذاك التعليق الشرقي الذي يسمع للفنان ان
يوقع المقطع الموسيقي كما يريد حسب تأثير الظروف ، فيعطي للتوقيع حفة
غاية في المرونة ؟

وقد امتاز واضر الاالحان من الشرقيين بتمهيد السبيل لحرة التنغيات .
فجعلوا لآلحانهم طريقة عجيبة يسير عليها المغني في اول اللحن ، وفي وسطه ،
وفي آخره . وكذلك القول عن الترنيمات فانها كثيراً ما تكون وافر وغنية
بفضل الأبعاد بين انصاف الابراج المختلفة .

وعليه فان الموسيقى الشرقية ، اذا ما سمعناها من مغنٍ واحد ، تجذب
حواسنا ، وتذهب بنا كل مذهب . لان ما فيها من اختلاف الأبعاد بين انصاف
الابراج يسر جميع الأذان كما سئى . على ان مجموع الآلات الشرقية ، او

النوبة ، تظهر حافلة بالكثير من النواقص . فهي خليط من الألحان المتنافرة تشتمل منها الآذان المثقفة فلا تُقرّما بسهولة . ولهذا فإن جدول قطع النوبة هو هو دون تنوع ، لأن الضاربين أو النافخين يفظونه دون الاستماعة بالعلامات الموسيقية . فضلاً عن ذلك فإن آلتنا الوترية لا تُدَوَّرَن غالباً حسب درجة اشتداد الوتر ، أو توتره ، بل وفقاً لصوت المنفي ، فتفقد الآلة بهذه الطريقة حدة (timbre) نغماتها .

وما ابعد « الناي » الشرقي ، وهو آلة من القصب ، عن دقة الشبابة البرهمية ! فإن آلتنا القصية لا يمكنها ان تعطي نغمت صحيحة من حيث علم الطبيعيات^{١)}

وفي القانون ايضاً ، الذي يمكننا تسميته بالبيانو الشرقي ، نقائص عديدة سائير اليها . ولكن ما لي وللتوقف عند هذه النقائص ، فلأذكر الدواء حالاً يلزمنا أولاً ان تقرّ مبدئياً انه من الواجب علينا الحصول على العقلية « الموسيقية » واحترام القوانين العلمية التي لا يمكن ان نقاوم . ومن ثم فالواجب علينا ان نخضع صناعتنا الموسيقية للاصول والقواعد الطبيعية . فيلزمنا ان نبدأ اليوم بما بدأت به اورية من مائتي سنة ، اي يجعل التعليم الموسيقي اجبارياً في كل المدارس . افلا يكون موافقاً ان يوضع في كل مدرسة رسمية آلة بيانو يُمرّن عليها التلامذة ، فيؤلف منهم صفوف ابتدائية للموسيقى الصوتية ؟ عند ذاك نرى كثيراً من المواهب تظهر وتزدهر ! عند ذاك نشاهد كثيراً من الشبان يتخصّص بعضهم بدرس علم الموسيقى ، وبعضهم بدرس طبيعة الصوت ، وبعضهم يتوافدون على مدرسة الموسيقى الوطنية ، متخصّصين بالفزف على الآلات المختلفة . ثم يؤمّنون المراكز الموسيقية المختلفة فيتخرّجون على معلّمها . فيصيرون بحق اساتذة الغد ، من يناط بهم عن جدارة مستقبل الفن الموسيقي في الشرق .

اماً وقد وطّأنا بتلك المقدمات عن الموسيقى الشرقية ، فلنتقل الى درس

١) لا يخفى ان اطيبيين ييرون في كل نغمة ثلاث صفات هي: الثقل ، والمهدة ، وعدد الاهتزازات . فاذا فقدت النغمة احدها كانت غير صحيحة طبيعياً (الشرق)

الديوان الموسيقي : قسمَ اليوتان ديوانهم الى ٦٨ جزءاً ؛ فجعلوا للبعد الرباعي (quarte) ١٠ جزءاً ، وللبعد الخماسي او الضمّاز كما يسمّيه مؤلفونا الاقدمون (quinte) ٥٠ جزءاً ؛ وكان عندهم الرقم ١٢ يمثل البرج الكامل ، والرقم ٣ ربع البرج . على اني لست لانتوقف لدى هذا التقسيم الذي ظلّ نظرياً اذ لم يُعرف له تطبيق عملي يُذكر . بل انتقل الى ديوان فيثاغورس . وهو يؤلف أولاً من برجين اكبرين وبعده اصغر من نصف البرج العادي سمّاه « ليا » (limma) ، ويسمّيه مؤلفونا «الفضلة» ؛ ثم من ثلاثة ابراج كبرى وفضلة . وبين البرج والاخر فضلتان واحدة مرتفعة والثانية منخفضة . فيكون مجموع النغمات المستخرجة بالابرار المختلفة ١٢ في الديوان كله .

اما الديوان الطبيعي فهو الحاصل لنا ، اذا قسمنا طول الوتر الذي اخترناه^(١) على الارقام ١٠٠٤٣٢٤١ . الى ما لا نهاية له . فينتج لنا ، والحالة هذه ، مجموعة مؤلفة من ٨ ابراج ، ثم من ١٦ ، ثم من ٣٢ ، الى آخر ما هنالك . وهناك ديوان يُنسب الى زرلن (Zarlín) يُبتدأ فيه ببرج اكبر ثم ببرج اصغر ، فنصف برج ، ثم بثلاثة ابراج يليها نصف البرج . وهذه الطريقة أسّ نظرية الموسيقى المصرية . ولكنها عدلت اليوم بما يستوونه الديوان المعتدل (gamme tempérée)

وشبهَ بديوان فيثاغورس الديوان التركي الذي يؤلف من الابرار نفسها ، ويزاد فيه برج اصغر قبل كل برج اكبر ، مما يجعل في المرتبة (octave) ٢٤ برجاً او نغمة . هذا ولا يشمل الاثراك ابراجاً اصغر من البرج الاصغر . فيكون ان موسيقاهم تقتصر جداً عن الوصول الى جمال موسيقانا في اتقانها المختلفة .

وها نحن نصل الى الديوان العربي . فهو يتألف ، على قول اصحاب النظريات الموسيقية عندنا ، من ٢٤ رباعاً من البرج . وقبل ان نفتقد البراهين المؤيدة لاستعمال ربع البرج ، زى من اللازم ان نقف على آراء ارباب هذا العلم في

عصرنا فنقول :

لقد قسم السيد اسكندر شلفون البرج الى اربعة اجزاء متساوية ، محافظاً ، في مرتبته على صحة البعدين الرباعي والحلبي او العزاز . ثم قال انه يجدر بنا اعتبار هذا التقسيم كالديوان العربي القانوني المضبوط . على انه يُقرّ ان بعض النغمات لا توافقي هذا الديوان .

هذا وان الاب كولنجيت ، بعد ان لحص ابحاثه في هذا الموضوع ، قال : ان الابرار الاساسية في الديوان العربي هي من نوع الابرار الكبرى . اما ابرار الابرار الباقية فتظهر كأنها أدخلت في سبيل التنسيق والترتيب في اقسام المرتبة . ونحن ، اذ اردنا توقيع جميع النغمات الشرقية حسب مراتبها المختلفة على آلتنا الموحدة الوتر ، تحققتنا انه من المستحيل استعمال ربع البرج الحقيقي . فلو اردنا مثلاً تحقيق موقع نغمة « العراق » ، وقياسها $\frac{1}{4}$ البرج ، على وتر يبلغ طوله المتر الواحد ، لكان ذلك الموقع حسب الحساب الرياضي الدقيق بـ ١٨,٣٢ سنتراً والحالة ان تلك النغمة تقع ، في ديوان كولنجيت ، اعلى منها بمليستين اي بـ ١٨,٥٢ سنتراً ، فتولف $\frac{1}{4}$ من طول البرج . وسنرى انه لا يمكن استعمال نغمة بهذا الانخفاض الا نادراً وبكل تحفظ . اما ربع البرج الحقيقي ، كالنغمة « قب نيم حصار » مثلاً التي تُقرّر ، في ديوان كولنجيت ، بـ ٢,٧٨ سنتراً وفي ديوان شلفون ، بـ ٢,٩٠ سنتراً ، فلم يمكن استعمالها في احد الانغام الشرقية المعروفة . على ان السيد الحلبي ، وهو مؤلف كتاب في الموسيقى الشرقية ، يذكر في ديوان خاص به ، ان نغمة « العراق » تعادل $\frac{1}{4}$ من طول البرج عوضاً عن $\frac{1}{4}$

وهنا اتوقف قليلاً كي ادرس بدقة الديوانين اللذين اراهما اوزن واثبت ، واجدر بالانتباه من غيرهما ، وهما ديوان حضرة الاب كولنجيت وديوان السيد اسكندر شلفون :

اذا استعملنا كأس لقياس الابرار ، وترّاً طوله متر واحد ، كانت اول نغمة من الديوان « بكاه » ، وهي تكون بالوتر الكامل دون حبس . ثم تأتي باقي النغمات كما في الجدول التالي :

في ديوان شلفون ستمبر	في ديوان كولنجيت ستمبر	النفقات
٢٤٩٠	٢٤٧٨	قب نيم حصار
٥٤٧١	٥٤٠٨	حصار
٨٤٤٤	٨٤٣٤	تيك حصار
١١٤١١	١١٤١١	عُشيران
١٣٤٦٠	١٣٤٥٨	نيم عجم
١٦	١٥٤٦٢	عجم
١٨٤٣٢	١٨٤٤٨	عراق
٢٠٤٦٠	٢٠٤٩٩	نيم كُوشْت
٢٢٤٨٢	٢١٤٨١	تيك كُوشْت
٢٥	٢٥	رست (رصد)
٢٧٤١٥	٢٧٤٠٨	نيم زر سُكلاه
٢٩٤٢٥	٢٨٤٨١	زر سُكلاه
٣١٤٣١	٣١٤٢٥	تيك زر سُكلاه
٣٣٤٣٣	٣٣٤٣٣	دوشماه
٣٥٤٢٨	٣٥٤١٨	نيم كُودي
٣٧٤١٥	٣٦٤٧٢	كُودي
٣٨٤٩٧	٣٨٤٨٩	سِيكاه
٤٠٤٧٤	٤٠٤٧٤	نيم بوسليك
٤٢٤٤٣	—	بوسليك
٤٤٤٠٦	٤٣٤٧٥	چهارشاه
٤٥٤٦٣	—	نيم حجاز
٤٧٤١٤	٤٧٤٣٢	حجاز
٤٨٤٥٩	—	تيك حجاز

(للبحث صلة)